عظماء الوزراء اليوم

الشعراء عند عمر بن عبد العزيز

للأستاذ علي محمد حسن العماري

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ثامن خلفاء الدولة الأموية، وجده لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولا شك أنه ورث عن جده هذا كثيراً من صفاته، فكان عادلاً زاهداً متقشفاً حتى عده المؤرخون في سياسته وعدله خامس الخلفاء الراشدين. وقد ظل الناس خصوصا أهل البيت نحوا من ستين سنة يعانون أنواعا من الشدة والاضطهاد في دولة بني أمية؛ حتى جاء عمر ابن عبد العزيز على رأس المائة الأولى للهجرة، فملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا

ولقد تولى عمر الخلافة وهو كاره. وكان بوده قبل أن تصير إليه أن يبعدها الله عنه، وأن يثني عزم الخليفة سليمان بن عبد الملك عن العهد إليه ولكنه لم يجد سبيلا، فلما وقع الأمر وصارت إليه الخلافة كانت أول كلمة قالها « إنا لله وإنا إليه راجعون » كأنما وقع في شر عظيم. ولا عجب فقد كان يقول: «أنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسئلة غليظة إلا ما عافى الله ورحم »

كان ورعا زاهدا تقيا فرفع يده عن بيت المال فلم يأخذ منه شيئا، وكف يده عن الفيء فلم ينل منه كثيراً ولا قليلا. وقد حبب إليه أصحابه أن يأخذ من بيت المال مقدار نفقته وقالوا إن جدك عمر بن الخطاب كان يأخذ درهمين كل يوم، فردهم قائلا: إن ابن الخطاب لم يكن له مال حلال له أن يأخذ، وأنا مالي يكفيني

ونذهب نفتش عن مورد رزق أمير المؤمنين الذي تمتد دولته من الصين شرقا إلى بلاد المغرب غربا، فنجد له عبدا يسمى (درهما) يحتطب له — ونجد درهما يضيق بعيشه، ويتبرم بحياته مع هذا الخليفة الزاهد المتقشف، فما هو إلا أن يسأله الخليفة — ماذا يقول الناس يا درهم؟ وهنا ينفث الغلام عن ذات صدره ويجيب الخليفة — وما يقولون؟ الناس كلهم بخير، وأنا وأنت بشر! إني عهدتك قبل الخلافة عطرا لباسا فاره المركب طيب الطعام، فلما وليت ورجوت أن أستريح وأتخلص، زاد عملي شدة وصرت أنت في بلاء، فيقول له الخليفة: اذهب وأنت حر، ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجا

ويحرم عمر أولاده المال ويباعد بينهم وبين ترف أولاد الخلفاء، حتى يموت وليس عند أولاده شيء. ولقد أحضرهم قبل موته وهم يومئذ اثنا عشر غلاما فجعل يصعد النظر فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: «يا نفسي فتية تركتهم! يا بني إني مثلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا في النار. قال الرواة — فما احتاج واحد من ولد عمر ولا افتقر

أما الشعراء فكانوا في ذلك العصر الصعاليك السادة، يسيطرون على الحياة الأدبية في الدولة، ويعيشون عيشة الترف والنعيم، يأخذون من عطايا الخلفاء وجوائزهم، فما هو إلا أن ينبغ الشاعر حتى يقصد الوالي فيمدحه، ثم تسمو همته فيرحل إلى الخليفة ويمدحه فيرجع بالمال الوفير والخير الكثير ولم يكن الشاعر من هؤلاء. يعنيه أن يقول الحق أو الباطل، بل كثيرا ما كان يقول غير ما يعتقد، ويعتقد غير ما يفعل. وكان الخلفاء يبذلون للشعراء بسخاء ويعطونهم من بيت مال المسلمين ما نعده نحن إسرافا وفوق الإسراف، بل وما كان يعده معاصروهم من المتورعين ظلما للمسلمين واعتداء على حقوقهم. ولكن الخلفاء كانوا مستريحين إلى هذه الحال، لأن الشعراء في ذاك الوقت أشبه بالصحف الحزبية في وقتنا الحاضر ينشرون فضائل الأصدقاء، ويذيعون مساوئ الأعداء، وكان

كان بظنه حبا ؟ أم هو مستبد بعقله مانع شر الشرير باللفظ الخشن والوجه الملتوي! يا هادي السبيل؟ ما السبيل؟ أهو التفاني الدال على الذكاء يرافقه الخبث المبين عن التجربة؟ أم هو الصدق الدال على الاستقامة تمازجه الصراحة الواضحة عن النقاء؟ يا هادي السبيل! أكاد أسمعك تقول وهل الدنيا إلا اصطناع غباء وتجربة؟ هو السبيل الأول .. هو السبيل

ثروت أباظة

الأمويون بخاصة يريدون أن يشغلوا الناس حتى لا يتحدثوا فى السياسة العليا ووجدوا فى الشعراء شاغلا لهم أى شاغل . وقل من الشعراء من كان يرى بنفسه أن يكون مطية لخليفة أو وال أو أمير . وقف عمران بن حطان الخارجى على الفرزدق وهو ينشد شعره فقال عمران :

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل القسم للمواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه ... وتسم البخيل باسم الجواد

ولكن هيهات أن يستجيب الفرزدق أو أحد أصحابه الشعراء لهذا النبيل . وقد كان من عادة الشعراء أن يفدوا على الخليفة الجديد يهنئونه وينالون منه بسره وخيره . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وفدوا إليه — كعادتهم — مؤملين طامعين واجتمعوا ببابه منتظرين الإذن، ولكنه لم يأذن لهم . وكان على الشعراء أن يدركوا ، فإن الخليفة حرم نفسه وحرم أهل بيته ؛ فقد اجتمع الأمويون ببابه يوم تولى الخلافة وأعطه الحاجب بمكانهم، فقال له: ما يريدون ؟ قال الحاجب : ما عودتهم الخلفاء قبلك . وكان معه ابن فى سن الرابعة عشرة فقال: يا أبى دعنى أجيهم عنك ، فأذن له فخرج وقال: — أبى يقرئكم السلام ويقول لكم — إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم — كان على الشعراء أن يتنبهوا ولكن الطمع أعمى أبصارهم فتوسلوا إليه ببعض جلسائه، فقال يا أمير المؤمنين : الشعراء ببابك وأقوالهم باقية وسهامهم مسمومة — قال عمر مالى وللشعراء ؟ — قال صاحبه: يا أمير المؤمنين إن النبى صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى وفيه أسوة لكل مسلم. قال: صدقت فمن بالباب منهم ؟ قال ابن عمك عمر بن أبى ربيعة ، قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل :

وباليت سلمى فى القبور ضجيعتى ... هنالك أو فى جنة أو جهنم

والله لا دخل على أبدا . فمن بالباب غيره؟ قال: جميل بن معمر العذرى — قال عمر هو الذى يقول :

ألا ليتنا نحيا جميعا وإن نمت ... يوافق فى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب ... إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهارى لا أراها ويلتقى ... مع الليل روحى فى المنام وروحها

أعرب به، فوالله لا دخل على أبدا — فمن غير من ذكرت ؟ قال : كثير عزة ، قال هو الذى يقول .

رهبان مدين والذين عهدتهم ... يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة ركعا وسجودا

فمن بالباب سواه ؟ قال الأحوص الأنصارى — قال أبعده الله، ثم من ؟ قال: همام بن غالب الفرزدق، قال لا دخل على أبدا ، وذكر لكل منهما شعرا يفسقه به ثم قال فمن غير من ذكرت ؟ قال: الأخطل التغلبى قال: أليس هو القائل :

فلست بصائم رمضان عمرى ... ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عنسا بكورا ... إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير يدعو ... قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا ... وأسجد عند منبلج الصباح

فوالله لا ولى لى بساطا أبدا ، وهو كافر . فمن بالباب غير من ذكرت؟ قال: جرير بن عطية قال: فإن كان لابد فهذا — فلما مثل بين يديه قال اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقا، فأنشد قصيدة من رائع الشعر يشكو فيها ما أصاب قومه، ويذكر ما يرجونه من جود الخليفة وعطفه، ويمدح عمر مدحا سريا وفيها يقول

كم باليمامة من شمطاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفى فقد والده ... كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلا من الجن أو مسا من البشر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
أتى الخلافة أو كانت له قدرا ... كما أتى ربه موسى على قدر

فقال يا جرير والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم، فمائة أخذها عبد الله (يريد ولده) ومائة أخذتها أم عبدالله. يا غلام أعطه المائة الباقية، فخرج جرير يقول — إنها لأحب مال كسبته إلى . ويسأله الشعراء : ما وراءك ؟ فيقول: ما يسوءكم. خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع الشعراء .. وإنى لراض عنه

على محمد حسن العمارى